أي شيء، ظل صامتا، ولكن هيئته لم تكن غامضة ولا مفزعة، ولا كان حضوره كابوسيّا، مجرد شاب في السادسة والعشرين من عمره يقف بين الأشجار، تلامس أوراقها كتفيه، يلبس قميصا صيفيا قصير الأكمام وبنطلونا قطنيا خفيفا. لم أتمكن بسبب الظلام من التحقق مما تقوله عيناه، كانت الأوراق في ضوء الحديقة الخافت تلقي بظلال على وجهه، هكذا رأيته في المرة الأولي. لم أره بعين الخيال بل بعيني المثبتتين في رأسي. قلت ها هو أمامي يقف في الحديقة، ولكن ساقيّ لم تقدرا على حملي فبقيت على مقعدي أنتظر، لم أفكر فيما أنتظر، ربما لم أكن أنتظر شيئا لأني كنت قانعا برؤيته هكذا في الحديقة، بخير، قانعا أن السنوات الخمس التي انقضت منذ رحيله لم تبقه مثبّتا في الواحد والعشرين بل كبّرته كما تكبِّر الحياة الناس. حكيت لامرأتي. لماذا غضبت؟ قالت: «أين هي الحديقة التي رأيته فيها؟! بيتنا بلا حديقة، ولا شرفة تطل على أشجار!» لم تكن قبيحة ولا غبية، فلماذا قالت كلام الأغبياء المصابين بالقبح؟! انسحبتُ من الكلام، تناسيت ما قالت حتى نسيت، أكيد أنني نسيت، لو لم أنس لما عدت إليها في ذلك المساء أتصبب عرقا وأقول لها أنني رأيته جالسا مع عمال بناء عند أسفل عمارة في طور الإنشاء. كانوا متحلّقين حول حطب موقد يتدفئون على ناره، ويضعون فوقه إبريقا من الصاج الأزرق. كانوا صامتين، مكشوفين للبرد القارس، تضيء وجوههم زرقة اللهب المنبعث من الجمر. وقفت على بعد خطوات منهم. قلت: السلام عليكم. ربما ردوا السلام ولم أسمع، وربما لم يسمعوني فلم يردوا السلام. نظرت وتحققت وتعرّفت على أخي. ومرة أخرى لم أحدد معنى النظرة في عينيه فقد كان وهج نار حائلا دون التحقق. ثم رأيته مرة ثالثة في القطار. كنت على رصيف المحطة أقصد نفس القطار، ولكني تأخرت فانغلق الباب وبدأ القطار يتحرك. رأيته بوضوح لأنه كان يجلس بجوار النافذة. رأيت وجهه كاملا، كان رأسه مائلا قليلا إلى الخلف يسند رأسه إلى أعلى ظهر مقعده،